الفصل الثانى

توافق الأسلوب القرآنى
مع موضوع الدعوة

فى الجزء التطبيقى من هذا البحث درسنا ثلاثة موضوعات كنماذج لبلاغة القرآن فى الدعوة الى أهدافه ، ففى جانب العقائد درسنا الدعوة الى الوحدانية ، وفى جانب العبادات درسنا الانفاق فى سبيل الله ، وفى جانب المعاملات درسنا بعض التشريعات الاسلامية للأسرة ٠

وقد لمسنا تفاوتا فى خصائص الأسلوب القرآنى من موضوع الى آخر ، فى أسلوب عرضه ، ودعوته اليه ٠ وسر هذا التفاوت ـ فيما نرى ـ يرجع الى أمرين رئيسين ، أولهما : مراعاة حال المدعوين فى كل موضوع ، وثانيهما : مراعاة طبيعة موضوع الدعوة ذاته ٠

ونخصص هذا الفصل ـ ان شاء الله ـ لبيان السمات الخاصة للأسلوب القرآنى فى كل موضوع ، التى تجعله متوافقا معه ، قادرا على الوفاء بحقه ٠

● **أولا ـ خصائص الأسلوب القرآنى فى الدعوة الى العقائد :**

اذا كان الاسلام عقيدة وشريعة ، فان جانب العقيدة قد استأثر بالجزء الأعظم من القرآن الكريم ، يؤكد هذا أن عدد آياته ستة آلاف ومائتان وأربع عشر آية (١) ٠ وعدد الآيات الخاصة بالأحكام فيه خمسمائة آية ، وقيل مائة وخمسون باعتبار أن هذه المائة والخمسين هى الآيات التى صرح فيها بالأحكام وما فوقها استنبط منه الحكم ، فان آيات القصص والأمثال وغيرها يستنبط منها كثير من الأحكام (٢) ٠

وأيا كان عدد آيات الأحكام فانه يمثل نسبة ضئيلة الى جانب الآيات الخاصة بالعقيدة ٠

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ج ١ ص ٦٧ ٠

(٢) الاتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٢٠ ٠

هـــذه الظاهـرة التى تؤكد اهتمام القرآن بالدعوة الى العقيدة يمكن تفسيرها فى ضوء ما تقدم من مراعاة حال من توجه اليهم الدعوة ، ومراعاة طبيعة موضوع العقيدة نفسه ٠

أما فيما يتعلق بالمدعوين فان الاســـلام دين البشرية كلها ، ابيضـــها وأسودها منذ أشرق نوره على الكون ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليهـا ، وهذا يعنى أن دعوته الى العقيدة التى جاء بها موجهة الى الناس جميعا ، من كانوا فى عصر نزوله ، ومن يأتون بعدهم الى يوم الدين ٠ هذه الحقيقة اقتضت منه أن يواجه ألوانا من العقائد المخالفة ، وأنواعا من الثقافات ، والفلسفات والمواريث الراسخة فى نفوس أصحابها ، والتى تحتاج زحزحتها ـ لتتخلى فى النهاية عن مكانها للعقيدة الجديدة ـ جهودا خارقة ٠ وقد سبق أن أشرنا الى المناخ الفكرى الذى واجهته الدعوة يوم نزولها وتصدت لتغييره ، فقد واجهت أهل الكتاب من نصارى ويهود ، وواجهت المشركين الذين خلعوا صـــفات الألوهية على أنواع من المخلوقات ، كالحجارة والحيوانات ، أو على بعض مظاهر الطبيعة وقواها ، كالنار والكواكب وغيرهـا ، وواجهت الحـائرين القلقين الذين أدركوا بفطرتهم فساد ما عليه قومهم ، ولكنهم لم يهتدوا الى طريق الحق ، وواجهت المتبلدين الغافلين الذين كانوا يقولون : « **ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر** » (١) ، واجهت كل ذلك منذ أول يوم ، وكان عليها أن تواجه الى جانبهم ـ باعتبارها خاتمة الرسالات ـ كل ما يمكن أن يستحدث من فلسفات ومذاهب فكرية ، مما سمعنا عنه ، وما سيأتى من بعد ، ذلك هو الواقع الذى أعدت الدعوة الاسلامية نفسها لمواجهته، وهو واقع عريض يفسر لنا جانبا من حكمة تخصيص القدر الأكبر من القرآن الكريم لأمور العقيدة ، أما ما يزيد الأمر وضوحا ويكشف السر الكامن وراء هذه الظاهرة ، فهو طبيعـة العقيـدة ، وما تحتاجه من جهـد لتمكينهـا فى النفوس ٠

ذلك أن القرآن فى دعوته للعقيدة لا يخاطب نفوسا خالية ، ولا يسطر عقيدته فى صفحات بيض ، يثبت فيها ما يريد ، بل ان كل مخاطب بالدعـوة الجديدة هو فى الواقع مؤمن بعقيدة تملأ نفسه ، وتستقر فى وجدانه ، ذلك أن حاجة الانسان الى عقيدة أيا كانت قيمتها سامية أو هابطة يكاد يكون أمرا فطريا ، بل غريزة من الغرائز المركوزة فى الطبيعة الانسانية والغرائز لابـد أن تحقق نفسها فى واقع تتمثل فيه ٠

---

(١) الجاثية : ٢٤ ٠

« يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين : ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها الى الحياة الحيوانية ·· وان الاهتمام بالمعنى الالهى وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية » · ويقول « ان هذه الغريزة الدينية لا تختفى ، بل لا تضعف ولا تذبل الا فى فترات الاسراف فى الحضارة وعند عدد قليل جدا من الأفراد » (١) ·

واذا كان الأمر بهذه المثابة ، فان الدعوة الى العقيدة الجديدة تواجه فى الواقع بسد منيع فى نفس كل مدعو اليها ، متمثل فى عقيدته الخاصة التى تخالط كيانه كله ، وهذا السد المنيع هو أكثر الأمور استعصاء على التغيير ، بل أعتاها مقاومة لكل من يحاول لمزه أو طعنه ، دعك من تقويضه وهدمه ·

وربما كانت العقيدة خامدة فى نفس صاحبها ، وكان سلوكه أبعد شىء عما تقتضيه وتتطلبه ، ولكنها تبعث فجأة كالمارد الجبار لتدافع بشراسة عن موقعها فى النفس ضد كل من يقترب منها بعيب أو انتقاص · وكم رأينا أناسا تحللوا من كل ما توحى به عقيدتهم فى السلوك والقيم ، ولكن الواحد منهم يبذل روحه راضيا اذا مست عقيدته ·

سأل أحد الصحفيين نهرو الزعيم الهندى ، وهو من هو تحضرا واستيعابا للأفكار ، وقدرة على النقد والموازنة بين الأمور : كيف تستسيغ ـ وأنت المفكر المتحضر ـ أن تتمثل صفات الألوهية فى البقرة ؟ · فجاء رده عميقا فعلا اذ قال : ان العقيدة كالزوجة قد تكون دميمة ، ولكنها فى نظر الزوج أجمل النساء ·

والواقع أن العقيدة لا تعتمد على الاقناع العقلى فقط والا كان من السهل الاقناع بفسادها · بل هى شىء يخالط الكيان الانسانى كله ، ويمتزج بذراته كأنه أحد مكوناته الطبعية ، ومن يغير عقيدته انما هو فى الواقع يقوم بعمل جبار ، كأنه يغير به ذاته كلها ، ومن هنا جاءت صعوبة الدعوة الى العقيدة وجاء أيضا تركيز القرآن الكريم على هذه المهمة ، واحتفاؤه بها كل هذا

---

(١) عن كتاب الدين ص ٨٢ ـ ٨٣ للدكتور محمد عبد الله دراز · طبعة دار القلم سنة ١٩٧٠ ·

الاحتفاء المتمثل فى ايثارها بالجانب الأعظم منه ، واستخدامه لمختلف الأساليب ، واستعانته بشتى وسائل التأثير والاقناع · واذا كانت البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال فهاهى ذى حال المخاطبين وطبيعة الموضوع ، وما تتطلبه من تنوع فى الأساليب ووسائل العرض ·

فلنسجل اذن بعض سمات الأسلوب القرآنى فى هذا الغرض :

يستنهض القرآن الكريم كل القوى والملكات فى النفس الانسانية فيتجه اليها ، لينفذ من خلالها الى ما يريد لعقيدته من تمكين واستقرار فى أعماق النفس ومخالطة للكيان الانسانى كله ·

ـــ يتجه الى العقل : فيجادله ليكشف له عن زيف ما هو عليه من عقيدة فاسدة ، وأنها متهافتة لا تقوم على أساس ولا يقرها منطق سليم وليسوق له بعد ذلك الأدلة القاطعة على صحة العقيدة الجديدة ، وشهادة المنطق لها ، واطمئنانه اليها · وهو فى جدله ذاك يسوقه فى أسلوب تجتمع له جوانب الاقناع العقلى ، والتأثير الوجدانى ، مما يجعله جديرا بأن يطلق عليه المنطق الوجدانى كما سبق ·

فقد جادل المشركين ، وركز فى جدله على اثبات عجز هؤلاء الشركاء المزعومين وعرض ذلك فى أساليب متعددة ·

ـــ مرة بالتلطف والاستدراج واشراكهم فى استنباط النتائج والوصول الى الحق ، كما رأينا فى ابطال عبادة الكواكب ، وكيف استعرضها ابراهيم عليه السلام واحدا واحدا ، ليثبت عدم أحقيتها للألوهية ، فاذا انتهى منها جميعا صدع بالحق الذى يريده قائلا : « **يا قوم انى برىء مما تشركون · انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين** » (١) ·

ـــ ومرة بأسلوب المواجهة الصريحة ، التى تقطع كل حجة ، وتنهى كل جدل ، كما رأينا فى تلك التجربة العملية التى قام بها ابراهيم ، ليثبت لقومه أن أصنامهم عاجزة ، لا عن النفع والضر بل عاجزة أيضا عن أن تدفع عن نفسها ، وذلك عندما حطمها وجعلها جذاذا متناثرا تطؤه الأقدام ·

---

(١) الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ ·

ـــ ومرة بأسلوب التقرير الذى يجبرهم على النطق بالحق الذى لا يدفع « **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون • قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى ، فمالكم كيف تحكمون** » (١) •

ـــ ومرة بالسخرية منهم وتصويرهم فى صورة العاجز عن أتفه الأمور ، كما رأينا فى قوله تعالى : « **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب • وما قدروا الله حق قدره ، ان الله لقوى عزيز** » (٢) •

ـــ ومرة بمطالبتهم بالدليل على دعواهم حتى اذا عجزوا كان ذلك قاطعا فى بطلانها لأنها لا تعتمد على دليل •

ـــ ومرة بحثهم على تدبر ما فى الكون من دلائل على وحدانية الله وهو فى هذا المجال يعرض عليهم صفحات ناطقة من كتاب الكون الدال على ألوهية الله ووحدانيته فليس عليهم الا أن يعملوا عقولهم ويتدبروا وستبدو الحقيقة لبصائرهم جلية لا تحتاج الى دليل •

الى غير ذلك من أساليب فى ابطال عقيدة الشرك •

كما جادل أهل الكتاب فعرض لفكرة اتخاذ ولد فدحضها ، وهدم قواعدها وعرض ذلك أيضا بأساليب مختلفة •

ـــ مرة ببيان استحالة ذلك ، لأنه لا يكون ولد الا اذا كانت هناك زوجة ، وهم لا يدعون أن له زوجة « **بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة** » (٣) •

ـــ ومرة ببيان استغنائه عن الولد والشريك ، لأن الولد انما يطلب للحاجة اليه ، والله خالق كل شىء له ما فى السموات والأرض « **ذلكم الله ربكم لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل** » (٤) •

---

(١) يونس : ٣٤ ـ ٣٥ •
(٢) الحج : ٧٣ •
(٣) الأنعام : ١٠١ •
(٤) الأنعام : ١٠٢ •

كما فند دعوى ألوهية المسيح فمحقها . مرة باثبات صفات المسيح التى لا تتفق مع الألوهية « **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام** » (١) فكيف يكون المحتاج الى طعام وما يتبعه الها ؟ ومرة باقرار المسيح نفسه بأنه عبد الله الى آخر ما مر فى النصوص التى درسناها ٠

كما جادل أهل المنطق والفلسفة وساق لهم الأدلة اليقينية ومنها قوله تعالى : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** » (٢) وقوله : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » (٣) ٠

وهكذا توجه القرآن الكريم الى العقل يناقشه ويكشف له عن زيف ما يؤمن به ، ويقرر الحق الذى يدعو اليه ٠

ويتجه القرآن الكريم الى الوجدان باعتباره وعاء الشعور الانسانى ومجمع غرائزه ونزعاته ، وحوافز ارادته فنراه :

— يثير غريزة حب الذات بالترغيب ، فالانسان مجبول على حب الخير لنفسه والسعى لما يحققه ، فيعده بالخير فى الدنيا والآخرة ، ويعرض عليه صورا وألوانا منه ، مستخدما كل وسائل التأثير ، من تصوير معجب ، وتأكيد قوى ، وتشويق يثير الكوامن ، فيريه الجنة كأنه يرى مباهجها ، ويستروح نسماتها ، ويزين له ما يصنعه الايمان فى القلوب من شعور بالأمن وشعور بالرضا الى آخر تلك المعانى التى تلمس الوجدان وتفتح مغاليق القلوب ٠

ـ يثير غريزة الخوف بالترهيب مما سيترتب على عدم الاستجابة من ويل وبلاء فى الدنيا والآخرة أيضا ، فيعرض عليه صور العذاب فى الآخرة ويذكره بما أصاب الأمم السابقة فى الدنيا عندما تولت عن دعوة الله ٠ فى أساليب تجعله يرى مصارع القوم ، ويسمع أناتهم ، مما يهز القلوب ، ويزلزل النفوس لتنقاد وتلين ٠

---

(١) المائدة : ٧٥ ٠ (٢) المؤمنون : ٩١ ٠

(٣) الأنبياء : ٢٢ ٠

ـ يثير غريزة التدين فى الانسان التى تدفعه الى البحث عن الحق ، فيلقنه اياه . فى أسلوب أخاذ يحثه فيه على النظر فى آيات الله ، ويعرض عليه من ذلك ما يمتع الحس والعقل معا ٠

ـ كما يثير فيه مشاعر الهيبة والاجلال لله ، بما يعرضه عليه من صفات جلاله ، وعظائم آياته الدالة على قدرته ، كما يثير مشاعر الحب لله ورجاء فضله والتودد اليه ، والتوكل عليه ، والثقة فى رعايته وحمايته ، بما يعرضه من ألوان نعمه ، وعميم فضله ، وسابغ رحمته ، فهو الرحمن الرحيم الودود الغنى الباسط الجواد أسبغ نعمه على الناس ظاهرة وباطنة ٠ تلك المعانى التى تمثل رباطا روحيا محكما يشد الانسان الى ربه ، يكررها القرآن ويؤكدها حتى تستقر فى النفوس فترقق العواطف وتلين القلوب وتجذبها نحو الحق جل وعلا ٠

ـ كما يستجيش القرآن شعور الكرامة الانسانية ، فيربأ به أن يذل لمخلوق مثله ، وأن يعنو وجهه لما لا يملك لنفسه شيئا ، ويزكى فيه شعور الاعتزاز بما فضل به على سائر خلقه . من اصطفائه للخلافة فى الأرض وحمل الأمانة ، وتلك المنزلة العالية لا يصح أن يهدرها الانسان فيسجد لحجر أو يطلب العون من جماد ٠

هذه الغرائز وتلك المشاعر التى يتجه اليها القرآن ليجد الحق طريقه الى القلوب من خلالها ، يختار فى التعامل معها ما يناسبها من الأساليب المؤثرة التى تؤجج أوارها وتزكى حميتها ٠ واذا أردنا أن نشير الى الملامح البلاغية لأسلوب الدعوة فى باب العقيدة ، يمكننا أن نسجل ما يأتى :

ـ الكلمات ـ شأنها فى القرآن كله ـ تمتاز بالجزالة والفخامة مع عذوبتها وسلامتها من الغرابة أو التنافر ، وتختص هنا بميزة أخرى وهى ايثار الألفاظ الموحية المصورة ذات الظلال والجرس المناسب للمقام ٠

ـ الصياغة محكمة التركيب كل لفظ فى موضعه المقدر له ، وتمتاز بالايقاع المناسب للمقام والفواصل المحكمة فى مواضعها دون تكلف أو استكراه ٠

ـ والابداع فى التصوير ، واستخدام وسائل التأكيد ، والتأثير بكل ألوانها ولا سيما أسلوب التكرير ٠

ـ الاكثار من استعمال أسلوب الطلب لقدرته على احتواء المشاعر الوجدانية ·

ـ استخدام وسائل التشويق والتنبيه ، ولا سيما ما يمتاز به الأسلوب القصصي وضرب الأمثال ·

ـ حججه العقلية تتسم بالوضوح مع قدرتها على الالزام وتقرير القضايا ، وصياغتها الأدبية الفريدة ·

● **ثانيا ـ خصائص الأسلوب القرآني في الدعوة الى العبادات :**

يمتاز الأسلوب القرآني في الدعوة الى العبادات بما يجعله متوافقا أيضا مع حال المخاطبين بها ، ومع طبيعة الموضوع نفسه ·

فاذا كانت الدعوة الى العقائد تتجه الى البشرية كلها على مر العصور ، فان العبادات لا يطالب بأدائها ، ويدعى اليها الا من اقتحم العقبة الأولى فأسلم قلبه لله وانضم الى جماعة المؤمنين الموحدين · عندما فقط يبدأ تكليفه بالعبادة ، ولا حديث للقرآن عن العبادة الا مع المؤمنين ، فالمخاطبون بالعبادات اذن هم قطاع خاص من الناس ، وهم صفوة البشرية الذين آثرهم الله بفضله ، فأصبحوا بنعمته مؤمنين به ·

أما فيما يتعلق بطبيعة موضوع العبادات فانها واجبات دينية فرض على المسلم أداؤها تزكية لنفسه ، واحكاما لصلته بالله عز وجل ، وقياما ببعض حقوق المجتمع المسلم على أفراده ، وهي في جملتها ما بين عبادة بدنية كالصلاة ، أو مالية كالزكاة ، أو يجتمع فيها المعنى البدني والمالي كالحج ·

تلك هي الاعتبارات المؤثرة في أسلوب الدعوة الى العبادات ، فلا حاجة للمسلم الى أسلوب الجدل لاقناعه بأداء العبادات ، اذ هي حق الله فهو يؤديها باعتبارها من مقتضيات العقيدة التي آمن بها · ولكن العبادات مع ذلك تكاليف وواجبات تلزم المسلم بالبذل والتضحية من ماله وجهده ، والنفس تستثقل الواجبات ، وتحاول التفلت من كل التزام لما في فطرتها من حب الذات والأثرة ، كما أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق ، فاذا لم يستطع أن يمنعه عن أداء العبادة ، أو يلهيه عنها ،

فهو يحاول افسادها عليه ، وذلك بأن يثير فى نفسه مشاعر ودوافع تحبط العبادة كالرياء حبا للجاه والسمعة ، أو المن بالصدقة والاستعلاء بها على الناس وغيرها من النوازع النفسية التى يحتاج المسلم فى مواجهتها الى جهد جهيد،تلك الغرائز الفطرية فى النفس التى تصدها عن الخير،وهذه الوسوسة الشيطانية التى تزين الفحشاء وتخوف من الفقر وتلهى عن الخير ـ كل ذلك فى حاجة الى جهد يتعهد النفس بالتربية والتهذيب ، يصقل معدنها ، ويعالج أدواءها التى تبطل العبادة ، وينمى فيها دوافع الخير ومعانى الايثار وحب الخير ، والحرص على ارضاء الخالق جل وعلا ، وغير ذلك من المعانى التى تقتضيها طبيعة تلك الفرائض ليؤديها المسلم على وجهها الصحيح ٠

ولهذا نرى أسلوب الدعوة الى العبادات وان خلا من الجدل والاقناع فانه زاخر بألوان التأثير الوجدانى المتعددة ٠

ـ فهو يتوجه الى غريزة حب الذات بالترغيب ، فيعرض ألوانا مما تحققه العبادات للمسلم فى الدنيا ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وعند حديثه عن الحج يشير الى أنه فريضة ليشهد المؤمنون منافع لهم ، والزكاة تطهر المال وتزكى النفوس ، وتحقق الخير للمجتمع كله ، وتربط بين الغنى والفقير برباط الحب والاخاء ٠ ثم يسوق ألوانا من الجزاء فى الدنيا بمضاعفة الصدقة والجزاء الأوفى فى الآخرة ، ويعرض ذلك فى صورة مؤثرة تدفع النفوس دفعا للطاعة ٠

ـ ويتوجه الى غريزة الخوف بالترهيب ، فيوعد المقصرين بكل ألوان العذاب ٠

ـ ويتوجه الى غريزة الملكية فيقلل من حدتها ، كما فى تسميته الصدقة قرضا فهى لن تضيع بل تتضاعف ، ويؤكد أن ما ينفقه المسلم اليوم سيضاعفه له الله غدا ، ويذكر بأن المال الذى فى يد الأغنياء انما هو مال الله جعلهم مستخلفين فيه ، فهو يطالبهم باعطاء الفقراء بعض ما أعطاهم هو من مال ٠

ـ ويتوجه الى النفس الانسانية فيعالج أدواءها من بخل وشح وحب للجاه والاستعلاء ، والمن والأذى ٠

كل ذلك لاحظه الاسلام فى دعوته للعبادات ، لأن طبيعة الموضوع تقتضيه ، وساقه فى أساليب زاخرة بألوان من وسائل التأثير ، وفيما درسناه

من نصوص ـ فى الدعوة الى الانفاق فى سبيل الله من الشـواهد والنماذج ـ ما يفى بالغرض ، فلا داعى لاعادة شىء منه هنا ٠

واذا أردنا استجلاء الملامح البلاغية فى الدعوة الى العبادات ، فيمكننا أن نستثنى أسلوب الجـدل ، ونثبت كل ما سـبق من ملامح فى الدعوة الى العقائد :

ـــ فالالفاظ تجمع بين الجزالة والسهولة ، وتبرأ من الغرابة والتعقيد وتمتاز بقدرتها على الايحاء والتصوير ٠

ـــ والصياغة زاخرة بخصائص النظم التى يقتضيها المقام ، وتمكنها من أداء المعانى على أوفى الوجوه ، كما تمتاز بالايقـاع المناسب للمقـام ، والفواصل المطمئنة ذات النغم الملائم ٠

ـــ والأسـلوب حافل بكل صور البيان زاخر بالتصـــوير ، ووسائل التأثير والتوكيد واللمسات الوجدانية ٠

ـــ يستخدم أسلوب القصة والمثل فى هذا الغرض لما فيها من خصائص التشـويق والتصوير ، وازجاء التوجيه الدينى بطـريقة الايحاء فى غمار الأحداث والصور ٠

● **ثالثا ـ خصائص الأسلوب القرآنى فى الدعوة الى المعاملات :**

فيما يتعلق بالمخاطبين فانهم هنا المؤمنون كما سـبق فى العبادات فلا حديث فى التكاليف الشرعية مع غير المسلم ٠

أما فيما يتعلق بطبيعة الموضوع فاننا نلاحظ ثلاث ظواهر ، انفرد بها هذا الأسلوب واقتضتها طبيعته :

أولها : أن القـرآن الكريم فى أحكامه لاحظ أنه يكلف بها أناسا لهم أعرافهم وتقاليدهم ، التى يحتكمون اليها فى شئون الحياة ، فلم يهـدم كل ما وجده بل أبقى على الصالح منها ، ونقض الفاسد ، وما اختلط فيه هـذا وذاك أبقى على ما فيه من خير ونفى عنه الخبث ٠

ولم يكن ذلك بالأمر الهين ، فللعادة سلطانها على النفوس وتمكنها من القلوب ، ولهذا لجأ القرآن فى بعض تشريعاته الى سبيل التدرج فى الأحكام

كما فى تحريم الخمر ، بل لجأ فى بعضها الآخر الى الاقناع والحجة مراعاة لسلطان العـادة ، وتمكنها فى القـلوب ، وذلك تثبيتا لأحـكامه فى قـلوب المؤمنين ، وتزكية لثقتهم فيها ، كما فى حكمه بحل بعض الذبائح التى كانوا يحرمونها ، وذلك قوله تعالى : « **ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين • ثمانيـة أزواج ، من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم ان كنتم صادقين • ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ، قل ءالذكرين حـرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليـــه أرحـام الأنثيين ، أم كنتم شـهداء اذ وصـاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين** » (١) •

فقد استخدم فى جدالهم ما يسمى بطريقة السبر والتقسيم ، وهى تقوم على تقسيم متعلق الحكم المستدل على بطلانه الى أقسام ينفرد كل منها بوصف لا يوجـد فى غيره ، ثم يكر على كل قسم منهـا بالرد والبطلان ، فاذا بطل وقوع الحكم على جميع متعلقاته ، وليس له متعلقات غيرها ، لـزم من ذلك بطلان الحكم من أصله •

وذلك بأنهم حـرموا بعض ذكور الأنعـام تارة ، واناثهـا تارة أخرى وأولاد هذه الاناث طورا ثالثا • فان كان التحريم لصفة الذكورة فقد وجب أن يطرد فى كل الذكور ، وان كان لصـفة الأنوثة وجب اطـراده فى جميع أفراد الاناث ، وكذلك الأمر بالنسبة لأولادها • اذن فالتحريم لم يبن على قيام علة مطردة يلزم من تحققها حصوله ، ومادامت علة التحريم غيرمطردة فلا يمكن قيام التحريم على أساسها ، ولم يبق الا أن يكون التحـريم قد صـدر ممن يملكه دون نظر الى علته وسببه ، ولا يملك ذلك الا الله سبحانه وتعالى • وليس لدى المشركين دليل من وحى أو رسالة أو علم يفيد التحريم (٢) •

ثانيها : أن المعاملات هى أحكام تضبط أنواع السلوك ، وتحدد الحقوق والواجبات ، فهى لذلك فى حاجة الى ألفاظ محددة المعنى ، واضحة الدلالة ، بعيدة عن الاستخدام المجازى أو أساليب التصوير •

ثالثها : أن الشريعة الاسلامية دائمة مستمرة ، وصور المعاملات بين الناس وقضاياهم متجددة لا تنتهى • فاستلزم ذلك أن تكون قابلة لتناول كل

---

(١) الأنعام : ١٤٢ ـ ١٤٤ •

(٢) انظر نسمات من عبير الأدب ص ٣٨ ـ ٣٩ •

ما يجد فى الحياة ، صالحة لمواجهة التطور الطبعى فى مجال النشاط الانسانى ، ولهذا نراه يعمد الى التفصيل والاستيعاب والتحديد فى المواطن التى لاتختلف باختلاف الزمان ، كما فى أحكام الميراث والمحرمات من النساء ، ويعمد الى الاجمال مكتفيا بأن تجىء نصوصه دالة على المبادىء العامة ، والقواعد الكلية ، بها من المرونة والسعة ما يمكن أهل الاجتهاد والفقه من استنباط الأحكام الجزئية فى اطار القواعد العامة التى وضعها ٠

كما فى قوله تعالى فى شأن المساواة بين الرجل والمرأة : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة** » (١) ٠

فالنص يساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات مستثنيا حالة واحدة وهى القوامة التى جعلها الله للرجل ، والتعبير عام يشمل كل ما يتحقق به هذا المبدأ ، فليقنن الفقهاء هذه الحقوق فى اطار ذلك المبدأ العام (٢) ٠

تلك هى الظواهر الجديدة فى هذا الموضوع ، وقد راعاها القرآن الكريم فى تعبيره عن الأحكام ذاتها ، ولكنه لا يذكر الأحكام وحدها بل يعقب عليها أو يمهد لها ، بما يحمل على طاعتها من ترغيب وترهيب ، أو باللمسات الوجدانية المؤثرة ، كالذى رأيناه فى قوله تعالى تعقيبا على أحكام الطلاق : « **واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا ان الله بكل شىء عليم** » (٣) ٠

وعند التنبيه على خصائص الأسلوب التشريعى لابد أن نلاحظ كل ذلك فهو :

ولا ـ فى النص على الأحكام تتضح فيه السمات التالية :

ـ فى الألفاظ يختار أدقها ، وأحكمها فى الدلالة على المعنى المراد ، ويكون أستعماله للألفاظ استعمالا حقيقيا ، فاذا أطلق لفظا اطلاقا مجازيا

---

(١) البقرة : ٢٢٨ ٠

(٢) انظر التشريع الجنائى الاسلامى مقارنا بالقانون الوضعى ص ٢٧ ـ ٢٩ ٠

(٣) البقرة : ٢٣١ ٠

لغرض ما ، كان ذلك واضح المأخذ قريبا ، شـديد الظهور ، كما فى تسميته المرضعة أما ، والمشاركة للطفل فى الرضاعة من الأم أختا ٠

— فى الصـياغة يقصد الى تقرير الحقائق الدينية والأحكام الشرعية دون مبالغة أو تجوز ، فلا يستعمل الخيال فى أصول المعانى المرادة ، وانما التعبير الحقيقى ٠ المفصل الواضح اذا كان المقام يستدعى التفصـيل ، أو المجمل الجامع اذا كان المقام له ٠

ثانيا ـ فى التمهيد للأحكام أو التعقيب عليها بما يعين على طاعتها :

يؤثر غالبا المعانى الوجدانية لبعث الثقة فيها لأنها حـكم الله العـليم بما يصلح الناس ، أو التذكير برقابة الله واطلاعه على الأعمال أو التحـذير من مخالفتهـا واثارة شـعور التقوى فى النفس أو الترغيب فى الطـاعة ، والوعد بجزيل الأجر ، وحسن المثوبة ، كما يستخدم وسائل التأثير الأخرى كالتوكيد ، وتكرير صفات الله فى الفواصل ، أو اثارة الشعور الأخلاقى فى النفس ، وباللمسات الوجدانية التى توحى بها الألفاظ والتعبيرات ٠٠

* * *

خاتمة

أحب أن أضع بين يدى القارىء الكريم هنا أهم نقاط البحث والنتائج التى تمخضت عنها هذه الدراسة ٠

كان عنوان الباب الأول « البلاغة والدعوة » وقد أقمته على ثلاثة فصول ٠ وخصصت الفصل الأول لموضوع : « الدعوة والداعية » فأشرت فيه الى أن نقطة البدء فى كل تغيير انسانى ، وتحول حضارى ، هى فى تغيير النفوس ، فتلك سنة الله الذى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن هذا التغيير يعتمد على ثلاثة أمور : عقيدة أو أفكار جديدة ، وداعية آمن بهذه العقيدة أو الأفكار ايمانا ملأ عليه كيانه ، واستحوذ على مشاعره ، فنهض يدعو اليها فى حماسة وثقة ، وأسلوب للعرض قادر على التأثير فى النفوس واستوائها ٠ تلك هى عناصر الدعوة التى تعنى : استمالة الناس نحو هدف معين ، والوصول بهم الى الايمان به ايمانا يخالط كيانهم كله ، فالعقيدة أو الهدف لب الدعوة وجوهرها ، والداعية هو حامل لوائها ، الذى وقف حياته عليها ، وأسلوب العرض هو وسيلته فى التأثير على الناس ، ونقل ما فى نفسه من ايمان بالهدف الى نفوسهم ، كى يؤتى هذا الايمان ثماره ، تغييرا للواقع السيىء ، وبناء لواقع جديد ، كل ما فيه ــ من جوانب مادية أو معنوية ــ مستمد من العقيدة الجديدة ٠

ثم انتقلت الى دراسة ما يتعلق بالمدعوين ، فتحدثت عن خصائص الجماعة النفسية ، وعن العوامل المؤثرة فى سلوكها ، فقسمتها الى نوعين : أحدهما شعورى بفعل التربية والتهذيب والبيئة ، وثانيهما لا شعورى يتمثل فى الرواسب الموروثة ، التى يتكون منها روح الشعب ، فالى العناصر الشعورية يعزى ما بين الأفراد من الفوارق والتفاوت ، والى العناصر اللاشعورية يعزى التشابه بين الأفراد ٠ وفصلت القول فى ذلك ، مستعينا بأبحاث علماء النفس المتخصصين ، موردا الأمثلة الكثيرة ، لتأثير روح الجماعة على الأفراد واستهوائهم ، وتحديد مواقفهم ٠

ثم وازنت بين تأثير المشاعر والعقل والخيال فى سلوك الجماعات · موازنة أسفرت عن تضاؤل مكانة العقل ، الذى يفسح الجانب الأعظم من مجال التأثير للمشاعر والخيال ، مما يوجب أن تكون هذه الحقيقة أمام الداعية · ونصب عينيه عند تعامله مع الجماعات ·

وقد أدى ذلك الى التعرض للوسائل التى يمكن للداعية أن يستعين بها فى التأثير على المدعوين · فبينت أن تلك الوسائل لابد أن تلتقى بالانسان فى كل جوانبه ، ونواحيه الوجدانية والعقلية والارادية ، لأنها تمثل منافذ التأثير فى النفس ، على الداعية أن يلج منها ، ويصل الى ما يريد ، على أن يلاحظ أثر الجماعة فى الفرد ، واستواؤها له ، مما يجعل روحها العامة تسيطر على ملكاته الخاصة ، فتؤجج مشاعره ، وتنشط جانبه الوجدانى ، فيواجه ذلك بما يقتضيه من اهتمام بالجانب الوجدانى والوسائل المؤثرة فيه ·

وعلى رأس ذلك الأسلوب التصويرى الذى يترك فى النفس انطباعات تمثل دور الشرارة الأولى التى لابد منها فى احداث الحركة ، ثم التوكيد والتكرير ، الذى يثبت المعانى ، حيث ينتهى الأمر بتكرار معنى معين الى رسوخه فى النفس على أنه حقيقة ثابتة · وبالحجة العقلية باعتباره أحد القوى الانسانية على الا نعطيه فوق ما يستحق فى هذا المجال ·

وبهذا تم لنا التعرف على طبيعة الدعوة ـ أية دعوة ـ باعتبارها وسيلة نقل الأفكار من واقعها المجرد فى صدور أصحابها ، الى الواقع الملموس فى نفوس الناس وسلوكهم ولون حضارتهم ·

ثم كان الفصل الثانى « طبيعة الدعوة الاسلامية » بمثابة التخصيص بعد التعميم لنقترب خطوة نحو هدف هذه الدراسة ·

فلاحظنا أن تعبير « الدعوة الاسلامية » قد يراد به الدين نفسه بمعنى مجموع عقائده وتشريعاته ، وأن هذا المعنى المراد من الدعوة الاسلامية ليس هدف دراستنا ، فذلك تكفلت به علوم الفقه والعقيدة · ولكننا نهتم به من زاوية واحدة هى أن العقائد والأحكام الاسلامية تمثل العنصر الفكرى النظرى الذى سبق أن قلنا انه لب الدعوة وجوهرها ·

فالقرآن الكريم فى الواقع قام بثلاث مهام ، وتضمن ثلاثة جوانب ، لم تجتمع فى غيره من النصوص ، فى أى لغة ، ذلك أنه هو الدين والرسالة وأنه أسلوب العرض والتبليغ وأنه دليل صدق الرسالة بما فيه من اعجاز ·

فدراستنا تنظر الى ما فيه من أحكام باعتبارها الأساس النظرى للدعوة فلا تستقصى فروعها وتتتبع مسالكها ، وانما تنصب على الجانب الثانى ، وهو أسلوب عرضه لهذه الأفكار ، وقدرته على التأثير والاقناع ، وقد نتطرق الى الجانب الثالث وهو جانب اعجازه الدال على صدقه باعتباره أحد وسائل الاقناع به ٠

غير أن طبيعة الدعوة الاسلامية وخصائصها باعتبار أنها الدين والرسالة ذات أثر كبير فى اختيار أسلوب العرض ، وطريقة الأداء ومن ثم كان لزاما علينا أن نفصل القول بعض التفصيل ، فى هذه الخصائص ، لنرى هل جاء أسلوب العرض موفيا بالغرض ، قادرا على الوفاء بما تقتضيه هذه الخصائص أم لا ؟

فرأينا أن الدعوة الاسلامية باعتبارها الدين والرسالة تمتاز بسمات معينة كان لها أثرها فى أسلوب العرض والتبليغ ٠ وأهم هذه الخصائص أنها دعوة عالمية ، وأنها تلبى حاجات البشر المادية والروحية ، وأنها خاتمة الدعوات وكل واحدة من تلك الخصائص اقتضت أن يلاحظ فى أسلوب العرض أن يكون موفيا بمتطلباتها ، فعالميتها اقتضت أن يكون قادرا على مواجهة كل التجمعات البشرية والفكرية الموجودة وقت نزوله ، وبجانب ذلك أن يظل صالحا لمواجهة ما يتعاقب بعدها ويستجد ، وشمولها لحاجات البشر اقتضى أن تضم العقيدة والتشريع من عبادات ومعاملات ولكل من ذلك أسلوب عرضه ٠

وخاتميتها اقتضت أن تكون تشريعاتها ، وعقيدتها ، صالحة لكل زمان ومكان ، وقد فصلت القول فى ذلك مع ذكر الأمثلة لكل منها ٠ كما تحدثت عن نجاح القرآن الكريم فى التأثير ، وبلوغه فى ذلك مبلغا أزعج المشركين ، فجعلوا كل همهم أن يحولوا بين الناس وبين سماعه ٠ كما تحدثت عنه كمعجزة ، مشيرا باختصار الى ما ارتضيته من وجوه الاعجاز ٠

وبهذا تم لى تبين الجوانب التى خصصت هذا الفصل لمعالجتها ٠

ثم جاء الفصل الثالث « البلاغة وصلتها بالدعوة » لنخطو به خطوة جديدة ، نحو هدف الدراسة ، فتحدثت أولا عن البلاغة ، موضحا أن الدافع الأول للبحث فيها هو محاولة الكشف عن سر الجمال فى الكلام وتأثيره الذى يميز بعضه عن بعض ، فيجعل منه ما هو قادر على الهاب النفوس ، واثارة كوامنها ٠ وقيادتها بما فيه من سحر وتأثير ٠

هذا الاحساس الفطرى بقيمة البيان وخطره ، كان هو الدافع الأول للبحث عما وراءه من أسباب ، ثم أضيف اليه دوافع أخرى ، منها : نزول القرآن الكريم على صورة معجزة ، ثم أضيف الى ذلك دوافع دينية تتمثل فى اثبات اعجاز القرآن ، ومواجهة دعوات الالحاد ، التى راح أصحابها يطعنون فى بلاغة القرآن الكريم ، ويشككون فى اعجازه ، ثم ما طرأ بعد ذلك على المجتمع الاسلامى من نهضة علمية متمثلة فى علوم اللغة والتفسير والكلام ٠ كل هذه الدوافع جعلت البحث البلاغى ـ الذى جعل منهجه قائما على دراسة النصوص لتبين ما فيها من أسباب القوة والتأثير ـ قد وصل الى درجة من النضج فى فترة وجيزة اتضحت ملامحها ، بل اكتملت صورتها على يد عبد القاهر ٠

وهنا نطيل الوقوف مع هذا الامام الذى يمثل منعطفا كبيرا فى تاريخ البلاغة ، فتتبعت آراءه ونظريته المتكاملة فى النظم ، والتى وصل بها الى أرقى ما يتحدث عنه النقد الحديث على المستوى العالمى ٠ ثم بينت أثره فى تطوير البحث البلاغى مقارنا بين حال البلاغة قبله وما صارت اليه بفضل جهوده فاذا أوفيته حقه انتقلت الى ما يمثل منعطفا آخر فى تاريخ البحث البلاغى على يد السكاكى ومدرسته ، التى ظلت مسيطرة على اتجاه البحث ، حتى شاء الله أن تجدد هذه الأمة حياتها ، فيشمل التجديد ـ فيما يشمل ـ علوم البيان والبلاغة وتقوم الدعوات القوية للعودة مرة أخرى الى أمهات كتب الأدب والنقد التى لم تفسدها طريقة المتأخرين ، وأساليبهم المنطقية وتعريفاتهم المتكلفة ٠ ثم يفد الى الحقل البلاغى عامل جديد ، باتصال الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية ، ومحاولة الدارسين أن يلقحوا البلاغة العربية بما حملوه معهم من أفكار جديدة ، وأشرت الى أن ذلك لم يكن خيرا كله ٠ وأن كان فى جملته قد أثرى البحث وأضاف اليه ٠

وبهذا تم لى رسم صورة للبلاغة فى ماضيها وحاضرها ، ثم عالجت صلة هذا كله بموضوع الدعوة ، وقلت ان البلاغة ـ بمعناها العملى كصفة للكلام ـ تعنى الجانب الذى يميز لونين من القول : أحدهما قادر على الوفاء بحاجة الانسان الفكرية ، وقضاء مصالحه اليومية ، والثانى قادر على الوفاء ـ بجانب هذا ـ بالتعبير عن الانسان بكل جوانبه ، ونقل مشاعره وأحاسيسه ، والتأثير فى مخاطبه ٠ وأن اللون الثانى من الكلام هو المستحق لصفة البلاغة ٠ كما أن البلاغة بمعناها العملى ، كقواعد هى تسجيل لعوامل التأثير فى الكلام وأسباب الجمال فيه ٠

واذا كانت الدعوة تعنى استمالة الناس نحو هدف معين ، واقناعهم به اقناعا يخالط وجدانهم ويصل بهم الى الايمان به ـ اذا كان هذا شأن الدعوة ـ فلا شك أن البلاغة هى سلاح الداعية الذى يحقق به ما يريد ٠

فالداعية يريد تغيير النفوس ، وتغيير النفوس يستوجب تعاملنا مع جميع ملكاتها ، وجوانبها الفكرية والوجدانية والارادية ٠ والبلاغة هى المؤهلة للقيام بهذا الدور ، لأن الكلام البليغ فى جوهره هو الذى يبلغ المتكلم به ما يريد من نفس السامع باصابته موضع الاقناع من العقل والوجدان من النفس ، فاذا نجح الداعية فى ذلك كانت ثمرته تحريك الهمة ، وتوجيه الارادة للعمل ، وفق ما حصله من اقتناع عقلى ، وترسب فى أعماقه من انطباعات نفسية ٠ والداعية لا يحتاج لأكثر من هذا ، فنجاحه وفشله انما يقاسان بالمدى الذى يصله فى هذا السبيل ٠

تلك هى أهم الموضوعات التى عالجتها فى الباب الأول وهى تمثل الجانب النظرى من دراستى ، والتى تمهد لما بعدها من دراسة تطبيقية ، نصاحب فيها بلاغة القرآن الكريم فى دعوته الى أهدافه ٠

أما الباب الثانى فكان عنوانه « مع بلاغة القرآن فى دعوته الى أهدافه فقد أقمته على ثلاثة فصول ، جعلت عنوان الفصل الأول « البلاغة فى الدعوة الى العقائد » فأشرت الى أن نقطة البداية فى طريق الدعوة هى الانذار بيوم الحساب لأنه يمثل الصيحة التى تنبه للخطر ، ثم أشرت الى تعدد الأساليب فى الدعوة لتكون قادرة على مخاطبة الناس جميعا بكل مستوياتهم الفكرية والحضارية واخترت موضوع الدعوة الى التوحيد ليكون نموذجا للدعوة الى العقائد وذلك بدراسة النصوص التى اخترتها بادئا بأسلوب الترهيب الذى يتكىء على غريزة الخوف ، وما فى النفس من حرص على ما يجنبها الأذى وعرضت ألوانا من الترهيب بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، وأتبعت ذلك بنصوص تمثل أسلوب الترغيب ، وهو أيضا يعتمد على ما فى النفس من غريزة حب الذات والعمل على ما يحقق لها الخير ، فدرست نصوصا تمثل أيضا الترغيب بالجزاء الأوفى ، فى الدنيا والآخرة ٠ ثم انتقلت الى أسلوب الجدل وهو أسلوب اعتدنا ممن يستخدمه ، أن يتجه الى العقل ، ، يحكمه فيما يعرضه من قضايا ولكن القرآن الكريم يأتى منه بالمبدع العجيب ، فيصوغه فى أسلوب يجمع بين اقناع العقل ، ومخاطبة الحواس ، وسائر الملكات الانسانية ، وينأى عن جفاف المنطق وبرودة الفكر ، فيأتى أسلوبه فى الجدل جامعا لكل خصائص الأسلوب المؤثر الفعال ٠ وقد استعرضت منه ألوانا فى جدال المشركين وأهل الكتاب ، وأهل المنطق والفلسفة والاقناع بضرب المثل ، وبأسلوب التقرير وغيرها ٠

فاذا وفينا أسلوب الجدل حقه انتقلت الى أسلوب آخر هـو الأسلوب التلقينى ، الذى يورد فيه القرآن الكريم الحق مجردا ، لكنه يختار فى عرضه أساليب قادرة على النفاذ الى أعماق النفس ، وهز كيانها ٠

وهكذا تتبعت أساليب القرآن فى دعوته الى الوحدانية ، وأبرزت ألـوان البلاغة فيها ، فى صورة لا يغنى فى الدلالة على ما بها من جهد الا قراءتهـا وتدبرها ٠

أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد جعلت عنوانه « البلاغة فى الدعوة الى العبادات » ٠ وقد مهدت له بدراسة نفسية ، تكشف عن الاعتبارات التى لاحظها القرآن الكريم فى دعوته الى العبادات بعامة ، ثم أخذت الانفاق فى سبيل الله ليكون نمـوذجا للدعـوة الى العبادات مبينا أيضا الاعتبارات التى لاحظها القرآن فى دعوته اليه ٠

ثم اخترت نصوصا تمثل مختلف الأساليب القرآنية فى الموضوع ، منهـا ما يتجه الى النفس يزكيها ، ومنها ما يتجه اليها بالترغيب والترهيب بعـرض ألوان من صور المتاع الأخروى ، وأنواع من العذاب الذى يهز كيانها ، ويبدد عنادها ، كما يسوق الوعد بالحياة الكريمة ومضاعفة الأجـر للمنفقين ويحذر من العقوبة وسوء المصير للبخلاء فى الدنيا ٠

وهكذا كنت أستعرض كل هذه النصوص وأحلل أساليبها وانبه عـلى مظاهر جمالها ، وألوان بلاغتها ، وعناصر قوتها وتأثيرها ٠

أما الفصل الثالث والأخير من الباب الثانى ، فقد جعلت عنوانه « البلاغة فى أسلوب الدعوة الى المعاملات » واخترت « التشريع للأسرة » كموضوع له ومهدت له بدراسة نفسية ـ كما سبق فى الفصل الثانى ـ ثم حللت النصوص التى اخترتها للدراسة ، وتشمل تعـدد الزوجـات ، والاصلاح بين الزوجين وبعض أحكام الطلاق ، وسيجد القارىء فى هذه الدراسة التطبيقية جهدا أرجو أن يكون كافيا فى الكشف عن السمات البلاغية ، التى امتاز بها كل أسلوب ، ومدى مطابقتها لمـا يتطلبه الموضوع من اعتبارات ٠

أمـا الباب الثالث فقد خصصته لاستخلاص السمات المميزة للأسـلوب القرآنى من خلال ما سبق من دراسة نظرية وتطبيقية ، وكان عنوانه « خصائص الأسلوب القرآنى » وقد أقمتـه على فصلين :

الفصل الأول : جعلت عنوانه « وسائل التأثير فى أسلوب الدعوة القرآنى » فذكرت من ذلك ثمانية أشياء ٠

الأول : التصوير ٠ وتحدثت عن قيمة الأسلوب التصويرى فى مجال التأثير ، ثم تحدثت عن أنواعه فى الأسلوب القرآنى ، فذكرت أن القرآن يصور بالكلمة المفردة ، وأنه فى ذلك يستغل قدرة بعض الألفاظ على تصوير المعنى فى الاستعمال الحقيقى ٠

ثم تحدثت عن التصوير بأسلوب التشبيه وقدرته على التأثير ، فاذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه معنوى بحسى ، فان تأثيره مستمد من أنه ينقل النفس مما تعلمه الى ما هى أعلم به ، اذ تشترك الحواس فى ادراكه والنفس آنس لما يأتيها عن طريق الحواس ، أما اذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه حسى بحسى ، فانه يقرن صورة قوية تبعث الحياة فى صورة أخرى بجوارها ، وذكرت لذلك نماذج متعددة موضحا أثرها فى المعنى ٠

ثم تحدثت عن التصوير بالاستعارة فى المفرد ، وقدرتها على التخييل المشخص للأشياء ، والذى يخلع عليها الحياة والارادة ، وقيمة ذلك فى تأكيد المعانى وابرازها ، كما تحدثت عن الاستعارة على سبيل التمثيل ، ودور هذه فى التأثير أقوى وأتم من الاستعارة المفردة ، وذكرت لها أمثلة مبينا قيمتها فى ابراز خبيئات المعانى وفى ايحاءاتها ، التى تترك الانطباعات المؤثرة فى النفوس ٠

ثم تحدثت عن التصوير بالكناية وميزتها ، التى تجمع بين التصوير والتأكيد ، اذ كل كناية تتضمن الحكم مصحوبا بالدليل عليه بالاضافة الى ما فى بعضها من ذوق رفيع ، وأدب سام ، فى التعبير ، حيث تغنى المتكلم عن التصريح بما لا يجمل التصريح به ، وذكرت لكل ذلك أمثلة مبينا قيمتها وتأثيرها ٠

ثم انتقلت الى التصوير بأسلوب المجاز العقلى ، فأوضحت أنه قادر على تشخيص المعانى ، والمواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، مع ذكر الأمثلة المؤيدة لذلك مبينا أثرها فى المعنى ٠

بعد ذلك ذكرت ما فى أسلوب ضرب المثل من تصوير ، وما فيه بجانب ذلك من قدرة على الاستحواذ على المشاعر ، وايقاظ النفوس ، وتجديد نشاطها ثم ما به أيضا من قدرة على الاقناع ، جعلته احدى وسائله مع اثبات ذلك بالشواهد والأمثلة ٠

ثم انتقلت الى لون آخر من ألوان التصوير القرآنى ، وهـو التصوير الفنى برسم المشاهد دون أن يستخدم فى ذلك أى أسلوب من أساليب المجاز ، وبينت بالأمثلة قيمة هذا النوع فى الايحاء والتأثير النفسى ٠

وجعلت فى خاتمة ألوان التصوير الأسلوب القصصى ، الذى فصلت القول فى خصائصه المؤثرة ٠ واستعرضت احدى القصص القرآنية كنموذج للأسلوب القصصى ، وتأثيره ، وقبل أن أترك الأسلوب التصويرى أشرت الى الوسائل الفنية التى تضاعف قدرة الأسلوب التصويرى على التأثير ، فذكرت منها : استحضار الصورة باستعمال صيغة المضارع ، واطالة المشهد التى ترمى الى تعميق الانطباعات التى يوحى بها فى النفس والحوار الذى يزيد الأسلوب حيوية وتأثيرا ٠

بعد هذا انتقلت الى التوكيد باعتباره من أهم وسائل التأثير ، فبينت اهتمام القرآن به ، وكثرة استخدامه له ، وأنه يستخدمه فى التعبير عن كل أغراضه ، وأنه لا يقتصر على ألوان التوكيد الاصطلاحية ، بل يستخدم وسائل أخرى بجانبها ، وحللت نصا لأثبت بما فيه من ألوان التوكيد ما ذهبت اليه ، ثم ذكرت من ألوان التوكيد التى يكثر ورودها فى القرآن الكريم أسلوب القسم ، مبينا جوانب التأثير فيه ، ثم التكرير مشيرا الى أنواعه وصوره فى التعبير القرآنى ، ثم أشرت الى التوكيد بالتعبير بالماضى بدل المضارع للدلالة على تحقق وقوعه ، ثم التوكيد بصيغة القصر ، مشيرا الى أهم صورة ثم التوكيد بالتقديم ، والتوكيد بأحرف الزيادة ، والتوكيد بالخبر والمراد الأمر ، وغير ذلك من ألوان التوكيد ٠

وبعد ذلك انتقلت الى وسيلة أخرى من وسائل التأثير ، وهى ايثار الأساليب القادرة على احتواء المشاعر الوجدانية ، والتعبير عنها ، فأشرت الى تفاوت الأساليب فى ذلك ، وأن القرآن كثيرا ما يؤثر الأسلوب الطلبى ، ولا سيما أسلوب الاستفهام ، وعللت لكثرة استخدامه فى السور المكية ، معتمدا على احصائيات أثبتها ، مبينا ذلك كله بشواهد متعددة ٠

ثم انتقلت الى وسيلة أخرى من وسائل التأثير وهى التشويق والاثارة والتنبيه ، فبينت أن ذلك يتمثل فى أمور منها : التفصيل بعد الاجمال ، والايضاح بعد الابهام ، ومنها أسلوب التهيج والالهاب ، ومنها أسلوب الالتفات ، ومنها الخصائص الصوتية للتعبير التى تتمثل فى الألفاظ ذات الخصائص الصوتية القادرة على حكاية المعنى وتصويره ، ومنها التعبيرات ذات الايقاع والنغم ، وفصلت القول فى ذلك مشيرا الى ألوانه وأثره ، موضحا ذلك بالأمثلة التطبيقية ٠

ومن وسائل التأثير التى ذكرتها أيضا اثـارة بواعث الطاعة وتزكيـة دواعى الخير فى النفس ، وأن لذلك طرقا متعددة منها : الترغيب والترهيب وتربية الشعور الدينى ، وتربية الشعور الأخـلاقى ، ومنها أساوب الاحتكام الى النفس ، ومنها التعقيب على المعانى بذكر صفات الله المناسبة للموقف والتى تلقى فى النفس بايحائها القادر على استمالة النفوس ، وتزكى تطلعها الى ما بها من سمو للتأسى بها ٠

ثم انتقلت الى أسلوب المنطق الوجدانى الذى يجمع بين غايات الفضيلة فى الاقناع والتأثير ، مبينا خصائصه وأهميته ، مشيرا الى أهم صوره ٠

ومن وسائل التأثير أيضا توجيه النظر الى الظواهر الكونية ، للتعرف على الأسباب الكامنة وراءهـا ، وهو ما يمكن أن نسميه طريق الملاحظـة العلمية فتحدثت عن أثره الذى يمتد الى العقل والشعور ، وذكرت أمثـلة له توضح قدرته على التأثير ٠

وأخيرا ذكرت تلك الوسـيلة الجامعة المتمثلة فى خصائص الصـياغة وأسرار التركيب فيها ، فبينت أن ذلك بحر من الأسرار لا ساحل له ٠ وأن كل باحث يغترف منه بمقدار عطاء الله له ٠ وذكرت منه ألوانا منها : الدقة فى اختيـار الألفـاظ ، وهى ألوان وفنون مثلت لها ، ثم الدقة فى تركيب الجملة والأسلوب فذكرت منها : ايثار التعبير بالجملة الاسمية أو الفعلية ، وايثار التعبير باسم الاشارة ، أو الاسم الموصول ، أو الاسم الظاهر بدل الضمير والتقـديم وأسراره ، والتعريف ودوافعـه ، والتنكير ، والحذف ، والقصر ، والفصل والوصل ، وغير ذلك مما يؤثر القرآن التعبير به عندما يقتضـيه الحال ٠

أما الفصل الثانى من الباب الثالث فقد جعلت عنوانه « توافق الأسلوب القرآنى مع موضوع الدعوة » وهو يعالج ظاهرة واضحة فى الأسلوب القرآنى تلك هى ما فيه من تفاوت فى خصائصه من موضوع الى آخر ٠ وقد رجعنا تلك الظاهرة الى أمرين رئيسين :

أولهما : مراعاة حال المدعوين فى كل موضوع ٠

وثانيهما : مراعاة طبيعة موضوع الدعوة نفسه ٠

وقد تتبعت ذلك فى كل من العقائد والعبادات والمعاملات ، كاشفا عن الاعتبارات التى اقتضت هذا التفاوت فى كلا الأمرين ، مستعينا فى ذلك بالاحصائيات ، والتحليل النفسى للمخاطبين فى كل غرض مما تبين معه تمام التوافق بين كل أسلوب وما سيق من أجله ، كل ذلك فى تفصيل واضح واستيعاب كامل ·

تلك أهم ما جاء فى الدراسة من نقاط · أما النتائج التى حققتها فأستأذن هنا أن أشير فى تواضع الى أهم الأمور التى أعتقد أن الدراسة قد تمخضت عنها :

ـ تبوأت الدعوة مكانها باعتبارها وسيلة البعث ، فى كل تغيير انسانى ، كما اتضح مفهومها ، وتبلورت عناصرها ، وتهيأ للدعاة أن يجدوا ما يستعينون به فى نجاح مهمتهم المقدسة وتعاملهم مع الأفراد والجماعات ·

ـ رسمت صورة واضحة للأبعاد الحقيقية للدعوة الاسلامية وما استتبعه ذلك من خصائص فى طرق العرض القرآنى لموضوعاتها ·

ـ تجلت وظيفة البلاغة فى الحياة وبدا دورها الاجتماعى ·

فلم تعد ترفا علميا ، أو بحوثا نظرية ، بل سلاحا يناضل به المصلحون وبناة الحضارات ·

ـ أضاف الجزء التطبيقى من هذه الدراسة الكثير ـ فيما أعتقد ـ للثروة البلاغية · فالتطبيق البلاغى ليس جهدا ميسورا ، ولكنه يحتاج الى أناة وصبر وتذوق ·

ولعل أبرز ما فى هذا الجانب هو المنهج الذى اتبع فيه ، اذ لم تدرس الجمل مفصلة عن غيرها ليبحث عما بها من ألوان البلاغة ، بل لم يدرس النص منفصلا عن غيره من النصوص ، التى تعالج الغرض ، وانما درست مجموعة من النصوص التى تعالج الموضوع باعتبارها وحدة متكاملة ، ينهض كل منها بجزء من العبء · فاذا بها فى مجموعها قد أوفت بحق الدعوة على أتم ما يكون الوفاء · وذلك منهج أعتقد أنه جديد فى باب التطبيق البلاغى ·

ـ أما الحديث عن وسائل التأثير فى الأسلوب القرآنى ، فأعتقد أنه جعل لكل لون بلاغى وظيفة يؤديها ، عند ما ينتدب اليها بحيث لا يصح أن يقحم شىء منها فى غير موضعه ·

ـ وأخيرا أشير الى التزام الدراسة بمنهج مترابط ، يمهد فيه سـابق للاحق ، ويبنى فيه ثان على أول ، ليمضى البحث الى غايته فى خطوات متتابعة منتظمة على الدرب المرسوم ٠

وما توفيق الا بالله والحمد لله أولا وآخرا ٠ وصلى الله على سيدنا محمد امام الدعاة وسـيد المرسلين وخير البشر ، وعلى آله وصـحابته ومن دعا بدعوته الى يوم الدين ٠٠٠

* * *